محكم

الثورة على تاريخ الفلسفة
من زاوية نسويّة

في أعمال المفكر
إمام عبدالفتاح إمام

محمد أحمد الصغير علي عيد

باحث مصري

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

تمهيد:

لا يمكننا تفكيك آراء المفكر "إمام عبدالفتاح" النسوية بغير فهم عام لأفكاره الفلسفية الدقيقة التي بانت من خلال مؤلفاته وترجماته لكتب معيّنة وبحوث مهمّة، أعدّها خصيصاً ليعضّد فكرته التي طالما نادى بها، والتي فيها يستعدي القارئ الحر على تاريخ الفلسفة الغربية بصورة أو بأخرى، وذلك لأنّ تاريخ الفلسفة الغربية ارتبط منذ عصر الفلسفة اليونانية إلى العصر الحديث بالفيلسوف الرجل، دونما ذكر أو إشارة إلى المرأة الفيلسوفة، وهذا ما يلفت انتباه كلّ دارس للفلسفة أو متصفح لكتاب من كتب تاريخ الفلسفة، لأنه سيلقى فيه عرضاً لتاريخ الفلاسفة الرجال وما شيّدوه من فلسفات، وقلما يجد من يذكر - وباستحياء- الفيلسوفة السكندرية "هيباشيا" Hypatia التي قُتلت بسبب اشتغالها بالفلسفة، فكانت بذلك شهيدة الفلسفة من النساء، شأنها شأن سقراط شهيد الفلسفة من الرجال.

هذا فضلاً عن النظرة الدونيّة إلى المرأة التي كرّسها الكثير من الفلاسفة، ولاسيما فلاسفة اليونان، من أمثال أفلاطون وأرسطو، بل وبعض الفلاسفة المحدثين، مثل جون لوك وروسو وكانط وغيرهم، وهي النظرة التي تقول بعجز المرأة ونقص في قدراتها العقلية، وأنّ العاطفة تحكمها أكثر من العقل، فلا تقوى بذلك على ممارسة الفكر النظري التجريدي المنوط بالرجال لتعلقها الشديد بالحسيّات، فهي رجل ناقص، وكائن عرضي، وغير ذلك من الآراء والمواقف التي يدحضها الموقف العلمي ويفنّدها.

الأمر الثاني الذي لا يمكن إغفاله في إطار تفكيكنا لأعمال إمام عبدالفتاح، هو عنايته الشديدة بالفيلسوف الألماني هيجل؛ فقد اتخذ إمام عبدالفتاح إمام إحدى مقولاته الشهيرة نبراساً له، وهي: "إنّ الفلسفة هي عصرها ملخصاً في الفكر". وكذلك تعلم من هيجل أنّ الخنجر لا يقتل الأفكار، ولكن يقتلها فكرة مثلها. ولا شك أنّ فلسفة هيجل قد تركت أثراً كبيراً في عقل إمام عبد الفتاح وصاغت رؤيته، ناهيك عن ملاحظة هيجل لمنطق العمليات العقلية الذي يسير عن طريق الوضع والمقابلة والتركيب وربطه بمنطق التطور التاريخي موضوع - نقيض - مركب، وقد ساهم ذلك في إثراء العقلانية المثالية لديه.

ومن خلال عناية إمام عبدالفتاح بهيجل تعلم الكثير عن خصائص شخصية الإنسان الشرقي من جميع جوانبها؛ الاجتماعية والدينية والسياسية والفنية، وكان من أهم ما تعلمه من أشياء أنّ المجتمع الشرقي "مجتمع ذكوري" يسيطر الرجل فيه سيطرة كاملة، وتتوارى المرأة حتى لتصبح متاعاً لا قيمة له. وهذا ما جعل بعض

المؤرخين يطلقون عليه اسم "جنة الذكور"؛ فالآباء يدعون في صلواتهم أن يرزقوا أبناء، ومن أشد أسباب المذلة والمهانة للأمهات ألا يكون لهن أبناء ذكور أو أن يلدن إناثاً فحسب.[1]

في تجربة إمام عبدالفتاح مع هيجل، تعلم منه أنّ الحقيقة ذات جوانب متعددة، وبالتالي فإنّ التفكير أحادي الجانب هو تفكير خاطئ؛ لأنه يبتعد عن الحقيقة، فالمذاهب الفلسفية تكشف عن جوانب فحسب من هذه الحقيقة المتطورة النامية. وهذا ما تأكد في عقل إمام عبد الفتاح بعد أن أعدّ أطروحته للماجستير بعنوان "المنهج الجدلي عند هيجل"، فقد علمه أستاذه زكي نجيب محمود الذي كان يدرّسه في جامعة القاهرة وأشرف على أطروحته، أنّ هناك دائماً فرقاً كبيراً بين "مسألة المنهج" و"مسألة المذهب"، وما يجب على الأستاذ آنذاك هو أن يعلمه المنهج دون أن يلزم أحداً باتباع مذهبه، وهذا هو "الأستاذ على الأصالة" كما يحلو لإمام عبدالفتاح أن يطلق عليه. كما تعلم منه أيضاً فهم ظلال النص قبل ترجمته للوصول إلى مغزاه.

والجدير بالذكر، أنّ إمام عبد الفتاح كان قد تتلمذ على يد الأستاذ يوسف كرم الذي كان يسفّه هيجل ومشروعه الفلسفي، ويتهمه بالسذاجة الفكرية؛ ممّا سبب حيرة كبيرة لإمام عبد الفتاح في بداياته، لم تثنه عن مواصلة مشروعه الفكري مع هيجل.

وقد ساهم كلّ ذلك في بلورة مواقف فلسفية معتدلة عند إمام عبد الفتاح، وتشكيل رؤية فلسفية تنويرية وحداثية، تجلت من خلال كتاباته وترجماته، وأسهمت في إثراء الحياة الثقافية والفلسفية في مصر والوطن العربي على السواء. ويظلّ أكبر إسهام له السلسلة الشهيرة والمعروفة في كافة أرجاء الوطن العربي التي تحدّث فيها عن المرأة والفلسفة وغيرها من أعمال تسترعي النظر والانتباه والدراسة والتحليل.

إنّ جلّ أفكار إمام عبد الفتاح النسوية - لصالح حريّة المرأة وحقوقها- مثّلت نواة التشكيك والتأثيم لتاريخ الفلسفة في عمومه، والثورة - بشكل خاص- على التراث الفلسفي اليوناني في إغفاله لدور المرأة في المجتمع والحياة.

وتساءل إمام عبد الفتاح أكثر من مرّة في كتبه المؤلفة والمترجمة تساؤلاً فلسفياً عميقاً: لقد كان ينظر إلى المرأة على أنها هي "الآخر"، فكانت تدرس بوصفها موضوعاً للنظر الفلسفي، فهل هناك ما يمنع فعلاً من أن تتحوّل المرأة من "موضوع" إلى "ذات" متفلسفة ومتأملة؟ وهل يمكن القول إنّ النشاط الفلسفي نشاط ذكوري أو رجولي ولا علاقة للمرأة به؟ وهل هناك أسباب أو موانع تمنع المرأة من التفلسف؟ وهل هذه الموانع طبيعية

[1] إمام عبد الفتاح إمام: تجربتي مع هيجل، القاهرة، 2004، ص 122

وفطرية أم أنها اجتماعية وتربوية ودينية وأخلاقية؟ وهل فعلاً - كما هو شائع ومشهور - لم يكن هناك نساء فيلسوفات؟ أم بالعكس هناك الكثير منهن، لكن تمّ تغييبهن في كتب تاريخ الفلسفة، فما هي إذن أسباب هذا التغييب؟ ثم ما هي المجالات الفلسفية التي حظيت باهتمام النساء الفيلسوفات؟

كل هذه الأسئلة الفلسفية المهمة، حركت عقل الفيلسوف إمام عبد الفتاح، وشكلت بعد ذلك رؤيته عن المرأة، والتي حاول أن ينقلها لنا في أكثر من كتاب مؤلف أو مترجم.

دواعي الثورة على تاريخ الفلسفة والحركة النسوية:

ينطلق إمام عبد الفتاح من مسلمات بدهية للفكر الإنساني في عمومه، وأشعر به وكأنه يسأل نفسه قائلاً في حيرة: إذا كان فعل التفلسف يرتبط أيّما ارتباط بالحرية، فإلى أي مدى يمكن اعتبار المرأة مثلها مثل الفئات التي كانت عرضة للاضطهاد والقمع على مر التاريخ، وأنّ هذا الاضطهاد هو ما منعها من الاشتغال بالفلسفة بوصفها أنموذجاً للفكر الحر؟ ولمّا كانت المرأة إحدى هذه الفئات، فقد أخذت تتحرر شيئاً فشيئاً من قيود الماضي، ومع تطور الفكر الإنساني وظهور الحركات النسوية التي تدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة، اقتحمت المرأة مجالات كانت بالأمس القريب حكراً على الرجل، فأصبحت طبيبة وعالمة وقاضية ومحامية وسياسية ورياضية وفنّانة وغيرها من المجالات، أضف إلى ذلك ولوجها عالم الفلسفة من أوسع الأبواب، مثل: الفيلسوفة الفرنسية "سيمون دي بوفوار "والألمانية "حنا أرندت" وغيرهن كثيرات.

وبعد أن تساءل إمام عبد الفتاح، حاول أن يتريث في إجاباته التي نقلها إلينا أعمالاً إبداعية خالدة وذات أهمية لحياتنا المستقبلية القادمة.

ولا يفوتني أن أؤكد في هذا المدخل التمهيدي على حقيقة مفادها: أنّ هناك العديد من المحاولات للثورة على الفلسفة في تاريخها الأوروبي، وأبرز المحاولات في ذلك ما قام به الفيلسوف الألماني نيتشه من خلال كتابه "ما وراء الخير والشر"، فقد أعدّ الكتاب ليكون مشروعاً للثورة على الفلسفة في تاريخها الأوروبي العتيد. فمثلاً ثار على أفلاطون وفكره ووصفه بالمنغلق المنحاز. وثار على كانط وسخر من اختراعه لملكة الحكم الخاصة بالقضية الأولية التركيبية، كما شملت ثورته شوبنهور والعديد من الفلاسفة.

وقد مثلت ثورة نيتشه وغيره من فلاسفة الاختلاف على تاريخ الفلسفة الأوروبية أرضاً خصبة للحركة النسوية (Feminism) كي تتشكل وتعمل وفق آلياتها المستحدثة. وكما قال عبد الكبير الخطيبي: "عندما نحاور فكر الاختلاف [سواء مع فكر نيتشه أو هايدغر أو بلانشو أو جاك دريدا]، فإننا لا نأخذ في اعتبارنا أسلوب

التفكير فحسب، وإنما كذلك الاستراتيجية المتبعة كي نجعلها في خدمة نضالنا" [2]، لا سيّما أنّ الفلسفة بعد هيجل تخلت، كما يقول فوكو، عن وظيفتها التقليدية المتمثلة في بناء التجريدات والعموميات، وأخذت تحتكّ بما ليس فلسفة، حتى إنه يمكن اعتبار "العمل على إبقاء الفلسفة منفتحة على ما يوجد خارجها، أحد ثوابت المسعى الجنيالوجي في الفلسفة"[3]، والذي انطلق مع نيشته، وتكرّس مع فلاسفة الاختلاف الذين حاولوا تحرير الفلسفة من هيمنة تاريخها، وذلك "بجعلها تنفتح على ما يوجد خارجها وعلى هامشها".[4]

وكان حصيلة عمل نيتشه، وغيره من فلاسفة الاختلاف، أن نشطت الحركة النسوية (الفمنستية)، لتعمل بكل جدّ على نقد تاريخ الفلسفة واتهامه "بأنه تاريخ فيه تمييز في الجندر (أنا رجل وأنتِ امرأة) وانحياز لصالح الذكور، وتسفيل لعمل النساء في طرفيه الذهني واليدوي، وأنه تاريخ كتبه فلاسفة رجال، أو هو في التقويم العام، تاريخ فلسفة ذكورية".

وحقيقة أنّ هذه الموجة الفلسفية النسوية العارمة تشكل اليوم الاتجاهات الفلسفية الأكثر معاصرة في أقسام الفلسفة في جامعات أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة وكندا)، فهناك تتجلى نتائج الثورة النيتشوية على تاريخ الفلسفة في مضمار الدراسات الفمنستية. يقول نيتشه في كتابه ما وراء الخير والشر: "إنّ تاريخ الفلسفة يكشف لنا عن فشل الفلاسفة في فهم طبيعة المرأة...". ومن ثمّ، دعا إلى قيام جيل جديد من الفلاسفة أطلق عليهم اصطلاح "فلاسفة الحاضر"، و"فلاسفة المستقبل".[5]

والجدير بالذكر أنّ الفلسفة النسوية بوصفها حقلاً جديداً في الدراسات الفلسفية المعاصرة تقوم أساساً على رفض المركزية الذكورية؛ أي ترفض أن يكون الرجل هو وحده صانع العقل والعلم والتاريخ والفلسفة. وفي هذا السياق، يذهب المهتمون بالفلسفة النسوية إلى أنّ مثل هذه الفلسفة تعدّ أعمق من مجرد المطالبة بالمساواة مع الرجال، لأنها تسعى إلى استجواب تاريخ العقل البشري والسياق الحضاري، للكشف عما تعرضت له المرأة من أشكال القهر والظلم والتهميش، مستهدفة بذلك تقديم نظرة جديدة إلى الوجود تغاير النظرة الأحادية الذكورية، أملاً في عقد نوع من التوازن والتكامل بين النظرتين. هذه المسائل وغيرها هي ما حاول إمام عبد الفتاح أن يرصدها، بصفتها ظاهرة تاريخية، من خلال إبرازه للعقليات الفلسفية التي أنتجت مثل هذا التغييب لدور المرأة، ولم يغفل أن يتناول أيضاً الفلاسفة الآخرين الذين دعوا إلى تحرير المرأة من الاستعباد.

---

[2] A.khatibi « Maghreb pluriel » éd denoel –paris 1982-p20

[3] محمد أندلسي:«نحو سياسة جديدة للكتابة في الفلسفة» مجلة عالم الفكر ـ العدد 4 المجلد 33- ابريل/يونيو 2005، ص 67

[4] المرجع السابق، ص 68

[5] محمد جلوب الفرحان: « دور المرأة الفيلسوفة في تاريخ الفلسفة الغربية»- مجلة منبر ابن رشد، العدد الرابع عشر، صيف 2013

لقد جاءت تحركات المفكر المصري "إمام عبد الفتاح إمام" من خلال كلّ أدواته المعرفية والمنهجية وما احتواه تاريخ الفلسفة الطويل من نظريات ومذاهب فلسفية متباينة لفهم المرأة. فكان اشتغال المفكر إمام عبد الفتاح على سؤال المرأة بشكل تقدمي وحداثي، وسبب هذا الاشتغال هو الإيمان الجازم لديه بأهميتها ودورها في صناعة الحضارة الإنسانية على مدى التاريخ، مع بحث دقيق في الأسباب التي أدّت إلى إهمال هذا الدور الذي لعبته ومثلته في الحضارة.

ولا يخفى على أحد أنّ موضوع المرأة وحقوقها ومشاركتها في المجتمع هو سؤال الساعة، وعلى الرغم من الاندفاع الرهيب للحركات النسوية، إلا أنه ما زال وضع المرأة في بعض البلدان وضعًا مأساويًا، يرتدي زي التقاليد البالية ويستتر باسم الأديان. وقديمًا انشغل الفلاسفة بالمرأة؛ فمنهم من وضعها في أحقر منزلة واعتبرها ناقصة عن الرجل فكريًا، ومنهم من اعتبرها مجرد وسيلة للإنجاب، ومنهم من هام بها ووصفها بالصفات الإلهية، ومنهم من نظر إليها نظرة موضوعية واعتبرها نصف المجتمع، وتعددت الآراء واختلفت اختلافًا واسعًا.

وقد مثلت المرأة في فكر إمام عبد الفتاح إمام امتداداً طبيعياً لكلّ المحاولات التنويرية في مصر والعالم العربي التي ناضلت من أجل حرية المرأة وحقوقها. لذلك يُعدّ المشروع الفكري لإمام عبد الفتاح بمثابة ثورة حداثية على الأفكار التقليدية التي ترسّخت في بنية العقل العربي بشكل عام، والتي تعددت مصادرها، ومفادها: أنّ عقل المرأة أقلّ من عقل الرجل، وأنّ تفكيرها ليس تفكيراً عقلانياً ومنطقياً سديداً، وإنما يميل دائماً ناحية العاطفة والانفعال، والتهور والاندفاع في الحكم والدراية.

ولا شكّ أنّ هذه الأفكار السائدة حول المرأة هي جزء من منظوماتنا الثقافية التي تشكلت من مصادر عدة، ولا يمكن عند معالجة ذلك إغفال المنابع التي أفرزت هذا الفكر الساذج لدينا.

ولا يمكن إغفال دور الوعي التاريخي بالحقائق والظواهر التاريخية.

ولننعطف الآن لرصد بعض المجهودات الفكرية والفلسفية التي قام بها الفيلسوف المصري إمام عبدالفتاح، والتي تصدّى فيها للتشويه المتعمّد للمرأة.

آراء فلاسفة اليونان تجاه المرأة:

يرى إمام عبد الفتاح إمام أنّ الفلسفة نشأت في بلاد اليونان، وأنّ تطور الحركة الفكرية هناك ساهم في تقدم الإنسانية، وعلى الرغم من كل ذلك إلا أنّ وضع المرأة كان سيئاً حتى في أفكار الفلاسفة العظماء، "على عكس ما نرى في مِصر القديمة، حيث تمتعت المرأة بحقوق كثيرة وجلست على العرش بعض الملكات، مثل حتشبسوت وتقلَّدن بعض المناصب السياسية والدينية المهمة، وعندما زار المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت (**Herodotus**) مصر أبدى دهشته من الفارق الواسع بين وضع المرأة في مصر والبلدان الأخرى".[6]

وقد عبّر فلاسفة اليونان نظرياً عن التراث السائد في مجتمعهم مصداقاً لقول هيجل: "إنّ الفلسفة هي عصرها ملخصاً في الفكر". وقد آمن إمام عبد الفتاح بهذه المقولة، وبدأ يتصدى للتشوية المتعمّد لصورة المرأة في التراث الإنساني من خلال رصده لجذور الفكرة التي ساهم في إثرائها عمالقة الفكر اليوناني القديم.

ويرى في ذلك "أنّ الصورة السيئة عن المرأة بيننا هي التي رسمها الفيلسوف منذ بداية الفلسفة في بلاد اليونان، ثم وجدت عندنا أرضاً خصيبة، حتى أنها ارتدت ثوباً دينياً، وأصبحت فكرة "مقدسة" لا يأتيها الباطل، وهذا ظاهر عند عمالقة الفكر اليوناني: سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، الذين أصبحت فكرتهم جزءاً من التراث الفلسفي الذي انتقل إلى العالمين المسيحي والإسلامي".[7]

ويطرح إمام عبد الفتاح تساؤلاً مهماً مفاده: لماذا ساءت العلاقة بين: "الفيلسوف" و"المرأة" لحقبة طويلة من الزمن، مع أنها لم تكن بهذا القدر من السوء مع الأديب، أو الشاعر، أو الموسيقار.؟ ويطرح عدة آراء لتفسير هذه الظاهرة، ويبدأ في عملية رصد للظاهرة من الناحية التاريخية لدى عمالقة الفكر الفلسفي مبتدئاً بسقراط وتلميذه أفلاطون. ويؤكد إمام في البداية على أنّ موقف أفلاطون تجاه المرأة لا يتعارض مع موقف أستاذه سقراط. من هنا، وجب علينا أن نشرع في عرض آراء أفلاطون ودراستها بشكل تحليلي.

أفلاطون والمرأة... موقفان متناقضان:

تبدو أفكار أفلاطون عن المرأة، في البداية، لغزاً لا يقبل الحل، وقد يتساءل المرء: كيف يمكن لفيلسوف متسق التفكير بصفة عامة، أن يؤكد من ناحية أنّ جنس الأنثى خُلق من أنفس الرجال الشريرة، ومن أنفس غير

---

[6] Will Durant: The story of civilization, Volume two, P. 143

[7] إمام عبدالفتاح إمام: أفلاطون والمرأة، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1996، ص 5

العقلاء، ثم يقترح من ناحية أخرى تربية متساوية، ودوراً اجتماعياً واحداً للجنسين؟ كيف يمكن للفكرة التي تقول، إنّ المرأة بطبيعتها شريرة وأكثر شراً من الرجل، أن تتفق مع الفكرة الثورية التي تقول، إنّ المرأة يمكن أن ترتفع إلى مستوى الحكام الفلاسفة في الدولة المثالية؟. هذا التناقض البيّن هو ما دعا المفكر إمام عبد الفتاح إلى تأليف كتابه عن "أفلاطون والمرأة".

والقضية الجوهرية التي يطرحها هذا الكتاب للدراسة قضية تتلخص في محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة: هل كان أفلاطون حقاً نصيراً للمرأة؟ وهل كان أول فيلسوف يدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة كما هو شائع في كثير من الكتب الفلسفية؟ أكان حقاً رسولاً لحقوقها في العالم القديم؟ وهل سبق حركات تحرير المرأة عندما دعا إلى عتقها من سجن الحريم؟[8]، أم أنّ ذلك كله مجرد ادعاءات محضة لا دليل عليها؟.

وقبل أن نعرض لآراء أفلاطون حول المرأة، علينا معرفة وضع المرأة في اليونان وقتذاك، فالمرأة كانت تُعتبر ملكية خاصة للرجل كالعبيد، ولم يكن لها مشاركة سياسية.

فالنساء في المجتمع اليوناني ومعهن العبيد، من أهم الفئات التي انحصرت داخل القطاعات الخاصة، فأماكن الخطاب السياسي العام كانت مقتصرة على المواطنين الذكور وحدهم، وليس للنساء ولا للعبيد دخل بها، إذ لا بدّ أن يصمت لسانهم أمام مسائل الحياة اليومية العامة. ولقد كان ذلك قائماً في أثينا وإسبرطة في آن واحد على الرغم مما بين المدينتين من اختلاف.[9]

ولكن في الواقع، علينا التفريق بين وضع المرأة في أثينا ووضعها في إسبرطة؛ ففي أثينا كانت المرأة تعيش في شبه خلوة شرقية في حجرات مُغلَّقة الأبواب، فكانت منعزلة عن المجتمع، وكانت تنال قسطًا قليلاً من التعليم لتستطيع تربية الأبناء، وهو دورها الوحيد، وكان المجتمع أبويًا، وكان الرجل هو المالك لجميع الحقوق المدنية والسياسية؛ فهو المالك للأرض والعقارات، ومن حقِّه أن يرفض أيّ طفل حينما يولد، وهو يسنّ من التشريعات ما يراه مناسبًا لدعم هذه الحقوق، حتى لو كان التشريع غريبًا كالقانون الذي يبيح الإجهاض إذا ما أراده الأب.[10]

وفي المقابل، نرى صورة مختلفة للمرأة الإسبرطية التي تلقَّت تربية صارمة وخشنة من أجل أن يكون أبناؤها محاربين أشداء، وكانت تشترك في بعض الرياضات العنيفة إلى جوار الرجل كالمصارعة، فظهرت

---

[8] المرجع نفسه، ص 13

[9] المرجع نفسه، ص 17

[10] المرجع نفسه، ص 26

(المرأة المسترجلة) التي تتحلى بصفات الرجولة، وتخلو تمامًا من رقة الأنثى أو عاطفة المرأة ومشاعرها، وكانت تربية الأطفال أهم ما تقوم به الدولة، فإذا ما وُلِد الطفل يُعرض على لجنة من المراقبين، فإن وجدوا فيه ضعفًا أو نقصًا حكمت اللجنة بأن يُلقى من أعلى جبل ليموت، وكان على الفتاة أن تكون قوية البنية صحيحة الجسم، فيتوجب عليها أن تسير في مواكب الاحتفالات العامة أو أثناء الرقص عارية تمامًا على مرأى من الشبان حتى يحفزها ذلك على العناية بجسمها، فالكشف عن عيوبها يحملها على الحرص على علاج هذه العيوب.[11]

كلّ هذه العادات والتقاليد السائدة، أثرت على عقلية أفلاطون الذي كان يعيش في أثينا، حينما عرض أفكاره أوّل مرة في محاورة (الجمهورية). وقد دعا فيها إلى ثلاثة أشياء: "المساواة بين الرجل والمرأة"، و"شيوعية الملكية والنساء"، و"حكومة الفلاسفة"، ودعوته إلى "المساواة بين الرجل والمرأة" هي التي دفعت الكثير من الباحثين إلى اعتباره أوّل مُدافع عن حقوق المرأة في التاريخ الإنساني، لكن لو تريثنا فسنجد أنّ دعوته تلك ما كانت إلا تأثرًا واضحًا بوضع المرأة في إسبرطة، فنجده مثلاً يقول: "إنّ الرجال كلاب حراسة ترعى القطيع والنساء مثل إناث الحراسة، عليها أن تسهر كالذكور على حراسة القطيع".[12] ومعنى ذلك، أنّ على الجنسين أن يقوما معاً بالحراسة، و"على نساء الحراس أن يقفن عاريات ما دمن سيكتسين برداء من الفضيلة، وأن يشاركن الرجال في الحرب، وفي كل الأعمال التي تتعلق بحراسة الدولة دون أن يقمن بأي عمل آخر".[13]

والمرأة التي يدعو إليها هي عَيْنُها المرأة الإسبرطية، ولم يكن أفلاطون - كما يدعي البعض - أوّل مدافع عن حقوق المرأة، وأيضًا نجده يدعو إلى شيوعية النساء والأطفال وإلغاء الأسرة، حيث يقول: "إنّ نساء حراسنا يجب أن يكنَّ مشاعًا للجميع، فليس لواحدة منهن أن تقيم تحت سقف واحد مع رجل بعينه، وليكن الأطفال أيضًا مشاعًا، حيث لا يعرف الأب ابنه ولا الابن أباه"[14]، ثم بعد أن واجه واقع الحياة المرير، وجد أنّ مدينته الفاضلة حُلم مستحيل، فغيّر الكثير من آرائه، وكتب محاورة (القوانين)، ومن آرائه التي غيرها بعض آرائه في المرأة، فنجده يغير رأيه في الزواج، حيث يقول: "إنه تبعًا للنظام السليم في أيّة دولة، فإنّ القوانين المنظمة للزواج ينبغي أن توضع في المقام الأوّل، ونجده يترك فكرة المرأة الإسبرطية التي كان يريد بها تثبيت عَضُد الدولة ويعود إلى التقاليد الأثينية، فنراه يقول إنّ النضج عند المرأة يكون متأخراً ويُقدِّر هذا التأخر بعشر

---

[11] المرجع نفسه، ص 45

[12] إمام عبد الفتاح أمام، أفلاطون والمرأة، مرجع سابق، ص 73

[13] مصطفى النشار: مكانة المرأة في فلسفة أفلاطون: قراءة في محاورتيّ الجمهورية والقوانين، دار قباء، القاهرة 1997، ص 46

[14] المرجع نفسه، ص 50

سنين، ولا نجده - كما كان في الجمهورية - يُشركها في الشؤون السياسية، ولا يعطيها حق التصويت، ويلزمها بالزي المُحتشم، ويعود إلى السلطة الأبوية، وإلى الكثير من التقاليد البالية".[15]

ونلاحظ بعد عرض الآراء السابقة، أنّ أفلاطون لم يكن يحمل أيّة أفكار عدائية تجاه المرأة، بعكس أرسطو - كما سوف يتضح- ولكن أهم ما نستنتجه عند أفلاطون أنّ له موقفين؛ كلّ موقف منهما - إلى حد ما - مُناقض للآخر، الموقف الأول دعا إلى نموذج المرأة الإسبرطية، ثم نقضه ودعا إلى الموقف الثاني الذي هو التقاليد الأثينية، فلا يمكننا إذن أن نطلق على أفلاطون ألقاب، مثل "محرر المرأة" و"المدافع الأول عن المرأة"، وكلّ هذه الألقاب التي لا يستحق أيّاً منها.

أرسطو والمرأة، وبداية التقنين للاستعباد:

يستغرب إمام عبد الفتاح إمام، في كتابه "أرسطو والمرأة"، أنه لا يوجد سبب واضح في حياة أرسطو الخاصة يوضح لنا سبب عدائه الشديد للنساء، بل على العكس من ذلك؛ فلقد تزوج أرسطو من امرأتين، والمعروف أنّ علاقته بنسائه كانت غاية في الروعة والرقة، وبالتالي فربما تعود نظرته للمرأة بشكل عام إلى طغيان العادات والتقاليد والمفاهيم الاجتماعية في عصره. ومن هنا، حاول إمام عبد الفتاح في كتابه استجلاء النظر لفهم واستيعاب أسباب الخصومة ودواعيها. ورجّح أن يكون سببها عائداً إلى الكيفية التي طبّق من خلالها أرسطو مصطلحيْ الذكورة والأنوثة على الكون النظامي. فلقد تحدّث أرسطو عن الطبيعة بوصفها شيئاً مؤنثاً، وأسماها "الأم"، في حين أشار إلى السموات والشمس بوصفهما "الأب". وممّا تحتوي عليه نظرته القول بحتمية الانفصال بين ما هو أعلى وما هو أدنى منه، ومن هنا فسّر لنا أسباب انفصال السموات عن الأرض الذي ما كان ليحدث لولا تفوق الذكر العقلي، واختلاف رؤيته عن رؤية الأنثى.

وحول طبيعة العلاقة بين الاثنين: الذكر والأنثى، فقد قال إنها التي تنشأ بين الأعلى والأدنى، أو على غرار تلك التي تنشأ بين الحاكم والمحكوم بالتعبير الآخر. ونظرة أرسطو ليست مجردة، وهي انعكاس لإيمانه العميق بمبدإ سيادة وعلو الذكورة، وانفرادها حتى بالفعل الحضاري، وهو إيمان تكثر الملاحظات حوله، لأنه ينطلق من الاعتقاد بأنّ الأنثى مخلوق شائه، أو هي كما ينظر إليها في حالة ثانية، ليست غير رجل مجدب له روح حيوان. وتصورات أرسطو عن المرأة جاءت من إيمانه بأنّ النظام السائد في الكون، إنما يوجد في تراتبيات

[15] إمام عبد الفتاح أمام، أفلاطون والمرأة، مرجع سابق، ص 83

هرمية تتصاعد في الدهاء والتعقيد، ومنها تراتب الذكورة والأنوثة، أو بمعنى آخر فإنها تعد انعكاساً لرؤية الكون: (أعلى/ أدنى).

ما سبق يجعلنا ننظر إلى أرسطو، باعتباره خصماً عنيداً للأنوثة، التي سوف يخرجها حتى من دائرة الفعل الحضاري، وسينظر إليها، باعتبارها المنطقة التي تحتكرها الذكورة لنفسها، ومن هنا أيضاً سوف نرى كيف صاغ أرسطو للعقل الذكوري الغربي طريقته في تفسير ظهور الحضارة، وهي الحضارة التي ستقوم بناء على توجيهات أرسطو، بقهر كلّ من المرأة والطبيعة وشعوب العالم الثالث جميعها على حد سواء.

و"إذا كان أفلاطون قد لخص من الناحية الفلسفية ـ وضع المرأة اليونانية ـ على نحو ما كان قائماً في مجتمعه، فإنّ أرسطو قد قنّن هذا الوضع عندما بذل جهده، ليضع نظرية فلسفية عن المرأة، يستمد دعامتها الأساسية من الميتافيزيقا، ثم راح يطبقها في ميدان البيولوجيا أولاً، والأخلاق والسياسة بعد ذلك، ليثبت فلسفياً صحة الوضع المتدني للمرأة الذي وضعتها فيه العادات والتقاليد اليونانية".[16]

وعلى ذلك، يمكننا اعتبار فلسفة أرسطو عن المرأة مُجرَّد تقنين لما قاله أفلاطون في القوانين، لكن الذي يُفرِّق بين آراء أرسطو وأفلاطون هو علم أرسطو بالبيولوجيا، إذ كان من أكبر علمائها وقتذاك، وكان يرى في مواضع كثيرة أنّ الذكر لديه قدرات أكبر من الأنثى، فمثلاً في مسألة الإنجاب يُصوِّر لنا الرجل على أنه (العلة) و(الأساس) و(مبدأ الحياة) والمرأة ليست إلا مُجرَّد (وعاء) أو (أرض) تتم فيها العملية. وكان أرسطو يتكلم بلسان حال التقاليد اليونانية وقتذاك، مثل انحطاط قوى المرأة العقلية وعدم قدرتها على المشاركة السياسية، وأنها عاطفية لا تستطيع تحكيم عقلها.

وتأتي خطورة نظرية أرسطو عن المرأة من أنها ترددت بعد ذلك بكثرة في تراثنا العربي، ربما لأنها وجدت أرضا خصبة مهيأة لتطبيقها، بما تحتوي عليه من آراء مماثلة لا ينقصها سوى التنظير، تماماً مثلما حدث في التراث الغربي[17]، فمثلاً نجده يوافق على قول الشاعر: "إنّ الصمت يُكسب المرأة عظمة"، ثم يُعلِّق ويقول: "لكن الصمت ليس جيدًا للرجال" ونجده يُقر بأن جنس الرجال أصلح للرئاسة من جنس النساء.[18]

---

[16] إمام عبد الفتاح إمام، **أرسطو والمرأة**، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996، ص 7

[17] **المرجع نفسه**، ص 7

[18] Politics by Aristotle, Translated by Benjamin Jowett, Book One, Part XII & Part XIII.

ونجده في ناحية الأخلاق يُسفِّهها ويقول إنّ الرجال أنبل من النساء، وليس من المناسب أن تتحلى المرأة بفضائل الرجال.[19]

وقد أسّس أرسطو بأطروحاته السابقة قاعدة لما أصبحت تعرف بالعقلية الذكورية التي ما زالت تسيطر ليس على أوروبا وحدها، وإنما على مختلف أجزاء العالم، وهي العقلية التي تحاول اختصار الوجود البشري في الرجل وحده، دون أن تعير انتباهاً حقيقياً للمرأة التي يتم تغييبها عن هذا الوجود الذي إن شئنا الدقة، لا يقوم إلا على أساس الذكورة والأنوثة معاً، وليس على أحدهما وحده. وهذا خلل واضح وكبير في فلسفة أرسطو، قد لا نكون مخطئين، إذا قلنا إنّ السكوت عليه يعدّ خرقاً كبيراً للفكر البشري الذي عليه العمل على إظهار المحجوب من قيمة الأنثى في الحياة. وكيف لا يكون الكلام مدوّياً في هذا الجانب، والكثيرون ما يزالون ينظرون إلى المرأة، باعتبارها كائناً لا يعرف شيئاً سوى الإنجاب، بل كيف لا يكون الكلام مدوّياً، والكثيرون لا ينتظرون من المرأة غير أن تكون كائناً وديعاً، تتقبل أي شيء بوصفها غير ذات فعالية ونشاط؟

وهكذا، نجد أنّ آراء المعلم الأول ليست إلا آراءً رجعية ومتأثرة بالتقاليد اليونانية البالية، وهذه الآراء أثّرت على الأجيال القادمة، وعلى ثقافات كثيرة منها الثقافة الإسلامية، وما زالت مثل هذه الآراء الرجعية نواجهها ونحن في عصر الحداثة.

دفاعاً عن الغزالي أم تبريراً صوفياً:

لا شك أنّ الإنسان يخطئ ولا عذر في النسيان، وما يحدث من التباس لدى الباحثين، مصدره الأساسي عدم بذل الجهد في تمحيص الآراء الواردة لدى بعض مفكرينا الأفذاذ. يسوق لنا إمام عبدالفتاح في رصده لوجهة نظر أرسطو في المرأة عبارة ملتبسة منسوبة إلى الإمام أبي حامد الغزالي، فيقول عبد الفتاح: "يرى الغزالي أنّ النكاح نوع من الرق، فهي أي (الزوجة) رقيقة له (الزوج)، وبما أنه نوع من الرق فطاعة الزوج عليها مطلقة في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه".[20]

الذي يطالع العبارة يجد أنها غير متسقة منطقياً ولا دينياً. فليس الغزالي ـ حجة الإسلام- بهذه السخافة الفكرية لكي ينطق بهذه العبارة الغريبة. وتبريري لذلك، أنّ المرأة في الإسلام بعامة وفي التراث الصوفي على وجه الخصوص، أخذت من الحقوق ما لم تأخذه في أي حقل فكري آخر. ولسيدي محي الدين عبارة غاية في

[19] إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، مرجع سابق، ص 95

[20] إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، مرجع سابق، ص 7

الروعة سمعتها ذات مرة من أستاذي رمضان بسطاويسي، وهو يحاضرنا في علم الجمال عند جورج لوكاتش يقول: "المحل الذي لا يؤنّث لا يعول عليه"، والبعض يقولها: "البيت الذي لا يؤنّث لا يعول عليه" نظراً لما للمرأة من أهمية بالغة في حياة الرجل والأسرة والمجتمع. ناهيك عن أنّ جلّ أشعار الصوفية اتخذت من حب وغزل النساء موضوعاً ألقاً يؤكد فتنتهم بجمالها وحسنها وقيمتها وأهميتها.

ولعل الالتباس الحاصل مصدره التأثر الشديد الذي حدث في العالم الإسلامي، بعد ترجمة كتب أرسطو، ووجهة نظره في المرأة.

الفيلسوف المسيحي والمرأة... امتزاج المقدس بالتاريخي:

يواصل إمام عبد الفتاح تحليله ومعالجته لصورة المرأة في ثقافة العصور الوسطى وفلسفتها، وبخاصة الفلسفة المسيحية من خلال كتابه: "الفيلسوف المسيحي والمرأة". فيرصد لنا آراء فلاسفة المسيحية، أمثال: كلمنت السكندري، وترتليان، وأريجين، وأبيلارد، والقديس أوغسطين، والقديس توما الأكويني... إلخ، وهي الأفكار البشرية التي أضفت على نفسها نوعاً من القداسة انسحب عليها بفعل علاقة المقدّس بالتاريخي. وقُلْ الشيء نفسه في تراثنا العربي الإسلامي الذي نقل الفكر اليوناني وتأثر به تأثراً قوياً وبخاصة آراء أرسطو، عدو المرأة اللدود.

"وعلى الرغم من أنّ الأفكار الإنسانية والمواقف الجديدة التي جاء بها السيد المسيح بالنسبة للمرأة، ومنها مثلاً: أنه لم ينظر إليها على أنها جسد وعلى أنّ صورتها عورة، كما أنه لم يرفض الاختلاط بين الجنسين، وعالج مشكلات المرأة كما عالج أمور الرجل سواء بسواء إلى آخره".[21] على الرغم من ذلك، فقد توارت كلها ليحل محلها التراث (اليهودي-الروماني) الذي كان قائماً في ذلك العصر.

"ومن المعروف أنّ التراث الروماني كان امتداداً طبيعياً للتراث اليوناني بما يحمله للمرأة من كراهية ونظرة دونية. فضلاً عن أنّ التراث اليهودي كان يتبنى النظرة نفسها مع إضفاء صبغة دينية عليها محاولاً أن يجعلها إلهية أو مقدسة، حتى استسلمت لها المرأة اليهودية في نهاية الأمر، واعتبرتها قضاء الله الذي لا رادّ لقضائه.

[21] إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996، ص 7

وهكذا، نتبين أنّ الخلفية التي عملت عليها المسيحية منذ ظهورها لم تختلف قط عن تراث التاريخ الماضي، وهو تراث كان يعبر عن مصلحة الرجل ومنفعته في مجتمع أبوي "ذكوري" يعمد إلى السيطرة على المرأة واعتبارها في مرتبة أدنى. أمّا إذا كانت زوجة، فقد أراد لها أن تبتعد عن كل إثارة؛ حتى يضمن سلالة من الأبناء من صُلبه نقية "خالصة" ليس فيها دماء غريبة؛ حتى ترث ما يملك".[22]

ومعلوم أنّ التعاليم التي أتى بها رسول المسيحية، "والمواقف الإنسانية الرائعة التي حدثت في عهده"، كان يمكن أن تشكل ثورة ثقافية واجتماعية هائلة، وترفع مكانة المرأة عالياً، أو على الأقل يمكن أن تنتشلها من الحضيض الذي كانت تعاني منه. ولقد ذهب البعض بالفعل إلى القول إنّ المرأة ارتفع وضعها، وعلت منزلتها بفضل الديانة المسيحية وتأثيرها في العقلية التوتنية "**Teutonic**"، لكن يبدو أنّ وقائع التاريخ تكشف لنا أنه لم تكن هناك أية دلائل على هذه الثورة في القرون الثلاثة الأولى من العهد المسيحي، وأنّ وضع المرأة بين المسيحيين كان منحطاً، بل يمكن لنا أن نقول: إنّ الأفكار عن النساء قد تدنّت عما كانت عليه من قبل".[23]

وهذا ما يؤكده إمام عبد الفتاح في كتابه، فيقول: والملفت للنظر حقاً أن تظل النظرة الدونية للمرأة التي سادت التراث اليهودي والروماني كما هي، وتبقى الشريعة الرومانية هي مصدر القوانين في العصور المسيحية الأولى، وفي شطر كبير من العصور الوسطى، وفضلاً عن ذلك، فإنّ هذه النظرة الدونية إلى المرأة قد اصطبغت بصبغة دينية مُستمّدة من الخطيئة الأولى، واعتبار المرأة مصدر الغواية، وبوابة الشر [...] ولاشك أنّ السيد المسيح دعا إلى قدسية الرابطة الزوجية، حيث يصبح الاثنان (الزوج والزوجة) جسداً واحداً "والذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" [متى 19: 4] وعندما جاء الفريسيون سائلين "هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لأي سبب"؟ [متى 19: 3] أجاب: "من أجل قساة قلوبكم أُذنَ لكم أن تطلقوا نساءكم" [متى 19: 8]. وفي هذه الكلمات الرقيقة دعوة صريحة وواضحة لمعاملة الزوجة بغير قسوة، أعني: بحب واحترام وتقدير. وهنا أيضاً يقف السيد المسيح إلى جانب المرأة ويحميها من الطلاق، وتعسف الرجل معها، وقسوته في معاملتها، بل إنه يلزم الرجل بالإبقاء على زوجته، حتى لو كانت عاقراً، في عصر كان الطلاق فيه بالغ السهولة بالنسبة للرجل.[24]

وعلى الرغم من أنّ كلّ مواقف السيد المسيح مناصرة للمرأة وحقوقها، فإنّ أتباعه من الحواريين والرسل قد حادوا عن الضرب، ومزجوا بين المقدس وبين آرائهم التي كانت وليدة تجاربهم أو مواقفهم الخاصة، فآلت

---

[22] إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، مرجع سابق، ص ص 7- 8

[23] المرجع نفسه، ص 46

[24] المرجع نفسه، ص 47

الأمور مع الفلاسفة المسيحيين إلى ترسيخ نظرة دونية للمرأة حالت دون تحريرها، ولم تعمل على إنصافها أو إنقاذها من الوضع المتردي الذي كانت تتخبّط فيه آنذاك.

وبمرور الوقت، تحوّلت نظرة الفيلسوف المسيحي إلى المرأة مثلها مثل نظرة اللاهوتيين ورجال الدين الذين يكنّون العداء المضمر للمرأة وحريتها، ولا يرون فيها إلا الشر، ويجردونها من كافة حقوقها، ويعتبرونها مجرد وعاء أو آلة تفريخ للنسل كما كان يعتقد أفلاطون، وهو الرأي الذي كان يقول به القديس أوغسطين، ويلصقون بها كافة أنواع الغواية والفظائع الجنسية الدفينة المترسبة بدواخلهم.

وهذا الذي دعا إمام عبد الفتاح إلى أن يفتتح كتابه بمقولة للقديس بونافنتورا: "إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم تشاهدون موجوداً بشرياً، ولا موجوداً متوحشاً؛ لأنّ ما ترونه هو الشيطان نفسه. وإذا تكلمت فما تسمعونه هو فحيح الأفعى".

ويعتقد إمام عبد الفتاح ومعه زمرة من الباحثين "أننا أمام خيط واضح يفسر كراهية القديس بولس للمرأة [...] جعلته حريصاً أشد الحرص على أن يذكر النساء بصفة مستمرة بأوضاعهن الدنيا بالنسبة للرجل، إذ المعروف تاريخياً أنه عندما رفض كُلِيّة للزواج استشاط غضباً، حتى أنه كتب ضد "الختان" باعتباره شعيرة دينية من الشعائر اليهودية. كما كتب ضد يوم السبت - يوم الراحة عند اليهود- وضد الناموس أو الشريعة اليهودية. وذلك يعني أنّ تجربة الحب التي مر بها مع ابنة "جماليل" كانت مؤلمة غاية الألم بالنسبة له. وربما كانت الشرارة الأولى التي ظلت جذوتها تعمل في أعماقه حتى أخرجته من اليهودية تماماً، وألقت به في أحضان المسيحية التي ظل يحاربها بشدة إلى أن وقع له الانقلاب الروحي العنيف، وهو في طريقه إلى دمشق، فأصبح المدافع الأول عنها".[25]

"ويرى بعض الباحثين أيضاً أنه ربما عادت كراهية القديس بولس للمرأة إلى شخصية النساء في موطنه الأصلي (طرطوس) وتأثيرهن عليه؛ فقد كانت العادات والتقاليد في هذه المدينة تحتم على المرأة أن تغطي جسدها تماماً، حيث لا يكون في استطاعة الرجل رؤية أي جزء من جسدها، لا من الوجه ولا من بقية الجسم، على أن يكون هناك ثقب في الرداء، لا ترى منه أثناء سيرها سوى الطريق. واستمرت هذه العادات الاجتماعية في عصر القديس "يوحنا فم الذهب" (345 - 407) الذي كثيراً ما كان يتحدث عن هذه العادة "المهمة" ويعتبرها "بقايا" عفة وطهارة لم يعد لها أثر؛ لأنّ الدنس أو التلوث يندفع - في رأيه- مسرعاً إلى النساء عبر الأذن مثلما يندفع من خلال العين، وهكذا تصل الإباحية والفساد إلى معظم النساء؛ ولهذا نراه يقول: "إنّ النساء

[25] إمام عبد الفتاح إمام، **الفيلسوف المسيحي والمرأة**، مرجع سابق، ص 49

يسرن في الشارع بوجوه مغطاة، لكن بأرواح مكشوفة، بل قل إنها في الواقع أرواح مفتوحة على مصراعيها". هذا التراث الاجتماعي ـ اليوناني اليهودي- هو الذي شكل أفكار القديس بولس عن النساء، وهي أفكار كان لها أثر قوي في تشكيل فكر الكنيسة الأولى عن المرأة، ثم في العصور الوسطى بعد ذلك. والواقع أنّ هذه الأفكار تحوّلت لتصبح القاعدة الأساسية للشكل الإكليروسي لعداء المرأة، بل كثيراً ما نهل منها الفلاسفة من آباء الكنيسة، وفقهاء ولاهوتيو القرون الوسطى".[26]

ويجمل إمام عبد الفتاح بعض الآراء الشائعة لعصر آباء الفلاسفة المسيحيين موضحاً أنها تعبر عن الرؤية العامة لديهم تجاه المرأة، ومن أهمها هذه الأقوال المنسوبة إلى أصحابها:

- ["ليس هناك شيء مخز أو شائن عند الرجل الذي وهبه الله العقل. لكن المسألة ليست على هذا النحو بالنسبة للمرأة التي تجلب الخزي والعار، حتى عندما تفكر في طبيعتها، وماذا عساها أن تكون"(كلمنت السكندري).
- "أنتِ بوابة الشيطان... أكلت من الشجرة المحرمة، وأغريت الرجل الذي لم يستطع الشيطان نفسه غوايته على نحوٍ مباشر...أنتِ، أيتها المرأة حطمت بسهولة صورة الله التي هي الرجل"(ترتوليان).
- "جسد الأنثى ليس شيئاً جذاباً، بل هو موضوع قذر، وإنجاب الأطفال ليس مدعاة للبهجة والفرح، بل هو علامة على الانهيار والتدهور" (القديس جيروم).
- "إنّ جمال المرأة لهو الشرك الأعظم. ابتعد عن الفتاة الشابة، مثلما تبتعد عن النار"(القديس يوحنا فم الذهب)[27]
- "آه! لو أني ارتضيت أن أكون خصيّا حُبّاَ في ملكوت السماء لكنتُ الآن أوفر سعادة"(القديس أوغسطين-الاعترافات).[28]
- "عصى الإنسان الله بسبب خطأ حواء في الحكم على ما هو خير، وهو يحمل الآن في كل جيل وِزر هذه الخطيئة الأولى"(توما الأكويني).[29]

---

[26] المرجع نفسه، ص 50

[27] المرجع نفسه، ص 61

[28] إمام عبد الفتاح إمام، **الفيلسوف المسيحي والمرأة**، مرجع سابق، ص 109

[29] المرجع نفسه، ص 135

"هذه أمثلة قليلة، وغيرها كثير، لحالات تطغى فيها العادات والتقاليد التي ترسخت مع مرور الأيام لتثبت في أذهان الناس دونية المرأة، وقصورها ونقص ملكاتها...إلخ، ثم يأتي رجال الدين واللاهوتيون ومن لفّ لفهم ليضفوا عليها مسحة دينية ولتصبح جزءاً لا يتجزأ من التراث الديني، بل قد يرتفعون بها لتبلغ حدّ القداسة، ويوصف من ينكرها بأنه كافر مارق، مع أنّ الدين منها بريء".[30]

نساء فلاسفة... وتحدي الفلسفة النسوية:

يُعدّ كتاب "نساء فلاسفة" دعوة للمرأة العربية لتستعيد الثقة بنفسها وعقلها، وترفض كلّ الأفكار المتخلفة والرجعية التي تحط من كرامتها وتمتهن قدراتها العقلية، إنه "دعوة لنبذ فكرة أرسطو الساذجة التي تزعم أنّ عقل المرأة أضعف من عقل الرجل، وأنّ تفكيرها يغلب عليه العاطفة والانفعال، وأنّ أحكامها يسيطر عليها الاندفاع والتهور وتنقصها الروية والتدبر، فلا الدين يقول شيئاً من هذا، ولا العلم يعترف به، ولا التاريخ يشهد بصحة شيء منه".[31]

ويعطي إمام عبد الفتاح تبريراً منطقياً للحملة الشعواء ضدّ عقل المرأة، غير متغافل عن العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والظروف الدينية التي تحيط بالمرأة، وفي ذلك يقول: "إنّ الحملة التي تشنّ ضدّ عقل المرأة والزعم بعدم قدرتها على التفلسف، والقول بأنّ تاريخ الفلسفة هو تاريخ الفلاسفة من الرجال، هذه الحملة تتغافل عن الدور البارز الذي تلعبه الظروف الاجتماعية والدينية...إلخ واستعباد الرجال للنساء وسيطرتهم عليهن طويلاً، وما ترتب على ذلك كله من عدم إتاحة الفرصة للنساء للتعليم، وإظهار قدراتهن العقلية".

وقد أراد إمام عبد الفتاح في كتابه (نساء فلاسفة) "أن يرفع الغشاء عن عين المرأة ـ وبخاصة المرأة العربية- التي تحجب عنها الرؤية ليكون بصرها اليوم حديداً، فتسترد ثقتها بنفسها، وتأخذ دورها في بناء المجتمع مع الرجل جنباً إلى جنب. ولن يتم ذلك كله إلا إذا أثبتنا رجاحة عقل المرأة، وسديد رأيها، وقدرتها على التفكير العلمي التي لا تقل عن قدرة الرجل، ولا سيما في مجال التفلسف الذي يبدو حقلاً مغلقاً مقتصراً على الرجال وحدهم، وبذلك نهدم الفكرة السائدة والساذجة معاً عن "العقلية النسائية الضعيفة الناقصة، وننتهي إلى إلغاء تلك الفكرة العقيمة التي تشطر العقل البشري شطرين: "رجالي" و"نسائي".[32]

---

[30] المرجع نفسه، ص 177

[31] إمام عبد الفتاح إمام، نساء فلاسفة، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1996، ص 19

[32] المرجع نفسه، ص 299

أراد إمام عبد الفتاح في كتابه "نساء فلاسفة" أن يشير إلى أمرين مهمّين؛ الأمر الأول: هو أنه من الطبيعي أن تكون البدايات الأولى للتفلسف عند المرأة بسيطة وساذجة، فقد تتألف من عبارات قليلة أو شذرات متناثرة هي التي بقيت لنا، وقد تدور حول موضوع بسيط، أو تكتفي بمد فكرة ما إلى مجالات أوسع كما حدث لنساء الفيثاغورية المبكرة، أمثال: ثيانو Theano، وأريجنوت Arignote، ميميا Myia. ثم تطور على أيدي نساء فلاسفة الفيثاغورية المتأخرة أمثال: إيزارا Aeasra، وفينتس الإسبرطية، وبركتيوني، إسبازيا "معلمة الخطابة"، ودوتيما "معلمة سقراط"، وجوليا دونا أو جوليا الفيلسوفة، وماكرينا، وهيباشيا "فيلسوفة الإسكندرية".

ويرى إمام عبد الفتاح أنه "عندما تتعدل الظروف الاجتماعية للمرأة في العالم الحديث، فسوف نجد فكراً أوضح في القرن السابع عشر، حتى يصل إلى القمة في القرن العشرين، والأمثلة على النساء الفلاسفة في العالم الحديث كثيرة، منها: "مارجريت كافنديش" Margaret Cavendish (1632 - 1673) الفيلسوفة الإنجليزية التي كتبت في الفلسفة الطبيعية، وكرستينا فازا Kristina wasa (1626 - 1689) ملكة السويد الشهيرة تلميذة ديكارت التي دعته إلى استكهولم عام 1650، وتعلمت على يديه بنية الفلسفة الديكارتية، وآن فينش كونواي Anne Finch Conway (1631 - 1679)، التي أثرت بقوة في "ليبنتز"، وهناك من الباحثين من يردّ إليها فكرة "الموناد Monad" الشهيرة في فلسفة ليبنتز، حتى نصل إلى أسماء لامعة في القرن العشرين من أمثال: ماري وارنوك Mary Warnock، وسوزان ستبنج، وسوزان لانجر، وسيمون دي بوفوار، وحنة أرندت وغيرهن".[33]

أمّا الأمر الثاني الذي نود أن نشير إليه بإيجاز، فهو أننا لم نحاول في هذا الكتاب إجراء حصر شامل لكل "النساء الفلاسفة في العالم القديم"، وإنما أردنا فقط تقديم نماذج لقدرة المرأة على التفلسف. فلم نذكر مثلاً من النساء الفيثاغوريات سوى ثلاث نساء من الفيثاغورية المبكرة، وثلاث من الفيثاغورية المتأخرة، في الوقت الذي يذكر فيه ميناج G.Menages في كتابه تاريخ الفلاسفة من النساء "ستاً وعشرين فيلسوفة فيثاغورية"، ولم نذكر مثلاً امرأة واحدة من أهل الرواق، مع أنه يذكر أربع نساء رواقيات في الفصل العاشر من كتابه. ولم نذكر شيئاً عن النساء الأبيقوريات، مع أنه يذكر منهن ثلاثاً، ولم نذكر من النساء الأفلاطونيات سوى امرأة واحدة "هيباشيا" فيلسوفة الإسكندرية، مع أنه يذكر منهن سبع نساء في الفصل الثامن. أما في الفصل الأول، فهو يذكر عشرين فيلسوفة.[34]

[33] إمام عبد الفتاح إمام، نساء فلاسفة، مرجع سابق، ص 300

[34] المرجع نفسه، ص ص 301- 302

ومعنى ذلك كله، أننا نقدم نماذج أو شواهد من تاريخ الفلسفة على قدرة المرأة على التفلسف، لتكون شموعاً أمام المرأة العربية تنير لها طريق التقدم والازدهار.

جون ستيورات مل ودوره في تحرير المرأة من الاستعباد:

ينتقل إمام عبد الفتاح إمام في العدد الخامس من سلسلته الشهيرة: "الفيلسوف والمرأة"، ليقدّم لنا نصّاً بالغ الأهمية للفيلسوف جون ستيوارت مل الذي دافع عن الحرية بصفة عامة في كتابه "أسس الليبرالية السياسية"، وهنا يستكمل الفيلسوف دفاعه عن "حرية المرأة" وحقوقها السياسية، ويدين المبدأ الذي يُنظم العلاقات بين الجنسين، وهو "مبدأ التبعية واسترقاق النساء"، ويكشف عن أنه مبدأ فاسد من جذوره، لأنه يقوم على أساس تبعية أحد الجنسين (النساء) للجنس الآخر (الرجال)، وهو مبدأ ينبغي هدمه ليحل محله مبدأ المساواة الكاملة التي لا تسمح بوجود ميزة لجانب على جانب آخر، وهو يرى أنّ مبدأ "التبعية واسترقاق النساء" الذي يعوق تقدم المجتمع ويمنعه من التطور، قد تغلغل في نفوس الرجال على نحو يجعل من الصعب مناقشته مناقشة عقلية، وذلك لعدة أسباب على النحو التالي:

أولاً: يستند هذا المبدأ إلى المشاعر والعواطف والانفعالات أكثر من اعتماده على العقل والمنطق، ومن هنا كانت قضية تحرير المرأة تشبه من هذه الزاوية قضية تحرير الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية التي وجد المدافعون عنها صعوبة بالغة في إقناع الناس "بالعقل" لتغيير مشاعرهم المتأصلة في أعماق نفوسهم.

ثانياً: لأنّ عبء الإثبات دائماً يقع على الجانب الإيجابي. ومن ثم فقد كان المفروض في قضية المرأة أن يقع عبء الإثبات والبرهان على من يقفون ضدها ويحرمونها من حقوقها المشروعة، لكن ذلك لا يحدث، وبذلك ترى الرجال يناقضون فرضاً مزدوجاً هو معارضة الحرية وتأييد التحيز، ومن ثم ينبغي أن يفرض عليهم تقديم الدليل الحاسم دفاعاً عن قضيتهم.[35]

ويعتقد "مل" أنّ الوضع الحالي للمرأة قد نشأ منذ البدايات الأولى للمجتمع البشري؛ ففي فجر التاريخ وجدت المرأة نفسها في حالة عبودية لرجل ما، ربما بسبب ضعف قواها البدنية، ثم بدأت القوانين والنظم السياسية، كما هي الحال دائماً، بالاعتراف بالوضع القائم، والعادات والعلاقات الموجودة بالفعل، ثم أحالت هذه الوقائع إلى قوانين، لأنّ القوانين ليست سوى تلخيص للأوضاع، والاعتراف بالعلاقات التي تكون موجودة فعلاً

[35] جون ستوارت مل، استعباد النساء، ترجمة: إمام عبد الفتح إمام، الناشر: مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1998، ص 11

بين الأقوياء، وهي بذلك تحيل الوقائع المادية إلى حق قانوني، وتضفي عليها مشروعية بإقرارها بواسطة المجتمع.[36]

ويرى الفيلسوف "مل" أنّ "استعباد النساء" ليس سوى امتداد لشريعة الغاب التي كان الرجل يعتمد فيها على قوته البدنية، ويسخر "مل" من الذين يدافعون عن القوة البدنية عند الرجال، ويعتبرونها "ميزة" يتمتع بها الرجل دون المرأة. ويتساءل في تهكم: أتراهم حقاً على استعداد للدفاع عن القوة البدنية عند "الفيل"، ويعتبرونها بالمنطق نفسه "ميزة" وعلامة تفوق تتمتع بها "الفيلة" دون الموجودات البشرية...؟ إنه لمن السيّئ أن نبقى على هذه الخرافات أو أن نتمسك بها.

"والواقع أنّ الناس لا تعرف سوى النزر اليسير عن مدى سيطرة "قانون القوة" أو "قانون الغاب"، بوصفه القاعدة التي كان معترفاً بها للسلوك العام طوال القسم الأكبر من تاريخ الجنس البشري، ولم يكن أحد يخجل من هذا القانون، حتى أنّ أرسطو، المعلم الأول، وضع نظرية شهيرة عن الرق، تؤيد هذا الوضع السيئ للعلاقات الإنسانية. وإذا كان الرجل قد مارس قوته البدنية لإشباع حاجاته، ولتحقيق مصالحه الخاصة، فقد مارسها أيضاً مع النساء فكان "خطف" المرأة يعبّر عن شجاعة نادرة، كما جرت العادة في بعض المجتمعات البدائية أن يقوم العريس بخطف عروسه لإظهار هذه الشجاعة النادرة، رغم أنّ القبيلة كلها تعلم أنهما في طريقهما إلى الزواج. وإذا كان الرجل قد مارس قوته البدنية في مجالات كثيرة، فإنّ له هنا ميزات وتسهيلات أكثر من أي مجال آخر لمنع الثورة ضده. فكل أنثى من المستعبدات تعيش تحت كنف رجل من "السادة"، وتكاد تكون في يده تماماً، وفي علاقة وثيقة مع هذا السيد أكثر بكثير من علاقاتها بزميلاتها من بنات جنسها".[37]

ولعل السبب وراء اختيار إمام عبد الفتاح لجون ستوارت مل، يعود إلى العلاقة المتحررة التي جمعت بين (مل) وزوجته (هارييت تايلور) Harriet Taylor، والتي امتازت بشغفها بزوجها وعبقريتها في العمل معه لتحرير المرأة من خلال دراستها وإبداعاتها التحريرية. وليس بمستغرب أن يأتي كتاب زوجها (مل) بعنوان "استعباد النساء"، بينما هي تهتم بإعداد مقالات أخرى بعنوان "تحرير النساء". فمعها باعتبارها امرأة جريئة ومتحررة يكون التحرير لجنس نوعها. أما زوجها، فيشتغل على تفكيك الآليات الفكرية التي حوّلت المرأة إلى كائن مستعبد ومضطهد من قبل الرجال.

[36] جون ستوارت مل، استعباد النساء، مرجع سابق، ص 12

[37] المرجع نفسه، ص 13

وفي الفصل الأخير من الكتاب، والذي عنوانه "تحرير المرأة من قيودها"، ينتهي مل قائلاً: "من مميزات تحرير المرأة: أن تقوم العلاقات البشرية على العدل لا الظلم". و"مضاعفة الملكات العقلية المتاحة لخدمة البشر". ويطرح "مل" تساؤلاً غاية في الأهمية، إذ يقول: "هل سيكون الجنس البشري أفضل في أي جانب إذا ما تحررت النساء؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا نزعج أرواحهن وعقولهن بمحاولة القيام بثورة اجتماعية باسم الحق المجرد؟".[38]

هكذا انتهى "مل" في كتابه "استعباد النساء" بطرح رؤية ثورة وتحررية للمرأة من الاسترقاق توافقت مع رؤية فيلسوفنا إمام عبدالفتاح إمام.

المرأة عند جون لوك وازدواجية المعايير:

لم يكن وضع المرأة في القرن السابع عشر أفضل ممّا كان عليه في الماضي؛ فقد ظلّ رأي الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" (1632 - 1704) في المرأة مسايراً للتراث القديم، فلم يكن حديثه عن تحرير الإنسان واسترداد كرامته وحريته وحقوقه، سوى حديث عن "الرجل"، بل عن نوع معيّن من الرجال، هم الذين يشكلون الطبقة البرجوازية الصاعدة التي وقفت تتصدى للملك شارل لتنال حقوقها، وكان من نتيجة هذه الوقفة أن قامت حرب أهلية طاحنة بين الملك من ناحية وهذه الطبقة (ممثلة في البرلمان) من ناحية أخرى، ومن هنا انصب اهتمام فيلسوفنا على إرساء دعائم مجتمع ذكوري ينال فيه الرجل (والرجل الإنجليزي البرجوازي بصفة خاصة) حقوقه كاملة غير منقوصة. أمّا المرأة (وكذلك العبيد)، فقد بقيت تابعة للرجل لأنه الأقوى والأقدر، والأدق فهماً، والأشمل إدراكاً، ومن ثمّ فليس للمرأة حقوق سياسية على الإطلاق، وليس لها من دور في المجتمع سوى الزواج والإنجاب وتربية النشء.[39]

لا يبدو جون لوك متسقاً في أفكاره كغيره من فلاسفة عصره، وبالرغم من كل ذلك، فلا أحد يستطيع أن ينكر أنّ "جون لوك" كان بغير جدال أحد مؤسسي المذهب الليبرالي، ومن أعظم الفلاسفة الذين دافعوا عن حقوق الفرد، ولقد أثرت أفكاره السياسية بقوة في الثورة الأمريكية التي نشبت بعد وفاته بما يقرب من سبعين عاماً [...] وبتأثير "لوك" ونظريته السياسية جاء في إعلان وثيقة الاستقلال الأمريكية التي أعلنت في الرابع من شهر يوليو عام 1776: "إننا نؤمن بأنّ هذه الحقائق واضحة بذاتها، وهي أنّ الناس قد خلقوا سواسية، وأنّ

---

[38] المرجع نفسه، ص 143

[39] إمام عبد الفتاح إمام، لوك والمرأة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2009، ص 16

خالقهم قد حباهم بحقوق معينة هي جزء من طبائعهم لا تتجزأ، منها: حق الحياة، والحرية، والتماس السعادة".[40]

صحيح أنه يقول بوضوح: إنّ جميع البشر بالطبيعة متساوون، لكنه يسارع ويضيف لا ينبغي أن يظن ظان أنّ المساواة هنا تعني جميع أنواع المساواة، ويقول: المساواة في حالة الفطرة هي أهم صفة يتصف بها الإنسان، ومن ثم كانت المساواة بين البشر بدهية[...] لكن إذا كانت المساواة بين البشر بدهية على هذا النحو فكيف حُرمت منها المرأة؟ ولماذا لم تمتد الفكرة لتعني المساواة بين الرجل والمرأة أيضاً، وليس المساواة بين رجل ورجل فحسب؟[41]

ويسرد إمام عبد الفتاح الكثير من الملاحظات تعقيباً على آراء جون لوك عن المرأة، فيقول: الواقع أننا نستطيع أن نلاحظ الكثير من المفارقات في نظرية جون لوك عن المرأة، ومنها:

1- أنه يتحدث عن المساواة بكونها حقاً طبيعياً بين البشر، لكنه من ناحية أخرى يتحدث بصراحة عن انعدام المساواة بين الرجل والمرأة، ويعتبرها مسألة طبيعية أيضاً.

2- إذا كان الإنسان يولد حراً، وأنه استمتع بهذه الحرية في مرحلة الطبيعة، فلماذا لا نقول إنّ المرأة كانت حرة أيضاً في هذه المرحلة؟ ولو صحّ ذلك فكيف حدث أن فقدت حريتها بعد ذلك؟.

ويرى إمام عبدالفتاح "أنّ لوك يستنتج نتائج مثيرة للدهشة من واقعة وجود فروق بين الجنسين، وإلا فإنّ هذه الفروق موجودة بين الرجال أيضاً، فلم لا يترتب عليها مثل هذه النتائج؟ [...] إنّ الفروق الطبيعية الموجودة في جنس الرجال بين رجل ورجل لم تبطل المساواة بينهم، بل كانت المساواة، رغم ذلك، بدهية وواضحة بذاتها لا تحتاج إلى نقاش، فلماذا كانت هذه الفروق الطبيعية بين الرجل والمرأة مبرراً لانعدام المساواة؟".[42]

وبسبب هذا التناقض، لا بد لنا أن نقول إنه يستحيل أن نرى لوك المبشر بالليبرالية حاضراً في موضوعات تتعلق بالمرأة، فليس هو الفيلسوف الليبرالي تجاه موضوعاتها، والواقع أنه كان هناك هدفان يتحكمان في نظرية

---

[40] المرجع نفسه، ص 138

[41] المرجع نفسه، ص 139

[42] المرجع نفسه، ص 141

لوك: هما: تشريع اللامساواة (أعني إضفاء الشرعية على انعدام اللامساواة) لصالح الرجل على حساب المرأة، والثاني: إضفاء الشرعية على حق الرجال في السيطرة على النساء.[43]

وهكذا بقي التراث الأرسطي قائماً حتى القرن السابع عشر، وظلت العادات والتقاليد في المجتمعات الغربية تواصل النظر إلى المرأة نظرة دونية، ولم يكن للفيلسوف من عمل سوى تقنين هذه النظرة والبحث عن المبررات التي تدعمها.

الثورية المنقوصة عند روسو تجاه المرأة:

يرى إمام عبد الفتاح أنّ روسو فيلسوف المتناقضات والمفارقات، فيلسوف يعيش بين أحضان النساء حتى أنه ليصعب على المرء إحصاء عددهن، يأكل من طعامهن، ويسكن في بيوتهن، ويستمتع بخيراتهن جسداً وروحاً، ثم لا يقول كلمة واحدة دفاعاً عنهن. لكنه والحق يقال، يبكي تحت أقدامهن أحياناً، ثم يقف منتصباً ليتحدث عن ضعف المرأة وقوة الرجل.

ولا شك، أنّ الأساس الذي يستند إليه روسو هو جمال المرأة وسحرها، وغريزة الجنس عند الرجل ولهفته عليها لإشباع هذه الغريزة، ولهذا فإنّ المرأة لم تخلق للعلم، ولا للحكمة، وإنما لإشباع غرائز الرجل وإقناعه بحسنها وجمالها.

يقول إمام عبد الفتاح متحدّثاً عن روسو: "علينا أن نلاحظ بدقة أنّ كلمة الناس أو البشر التي يستخدمها روسو بكثرة أو حتى كلمة الإنسان (وهي كلمة مضللة كثيراً ما تخدعنا)، لا يقصد بها هنا سوى المساواة بين الرجال، والحرية للرجال، والعدالة من أجل الرجال، وعبارة: "ولد الإنسان حرّاً، وهو الآن مكبل بالأغلال في كل مكان لم تكن تعني البشر جميعاً رجالاً ونساء، بل تقتصر على الرجال فحسب".[44]

ويرى روسو أنّ الدونية هي خاصية المرأة الأولى، وعليها أن تسلم بأنها أدنى من الرجل. وقد أوجدت المرأة في مرتبة أدنى، والطبيعة التي لا تفعل شيئاً باطلاً "قد جعلت الأدنى (المرأة) في خدمة الأعلى (الرجل)، هذا هو القانون الساري في الطبيعة وفي المجتمع في وقت واحد، ولهذا نراه يقول "لصوفي sophie"، وهو يعدها لتكون زوجة لإميل: "عندما يصبح إميل زوجك، فإنه سوف يصبح سيدك، تلك هي إرادة الطبيعة، ومن

[43] المرجع نفسه، ص 143

[44] إمام عبد الفتاح إمام، روسو والمرأة، مرجع سابق، ص 9

ثم فينبغي عليك طاعته...فمن مقتضيات قانون الطبيعة أن تكون النساء تحت رحمة أحكام الرجال من أجل أنفسهن، ومن أجل أولادهن".[45]

والجدير بالذكر أنّ روسو يؤكد على أنّ الأصل في الطبيعة أن تكون المرأة ضعيفة سلبية جبانة، وأن يكون الرجل قوياً جسوراً مقداماً، هو الذي يبادر بالهجوم، وهي التي تظلّ في موقعها لتقاوم. غير أنّ الطبيعة، كما يقول، "هي التي وهبت الأنثى أسلحة أخرى تستطيع أن تتغلب بواسطتها على قوة الرجل، منها الدهاء والمناورة". ومن هنا يذهب روسو إلى أنّ أيّة أرض تكسبها المرأة من الرجل داخل الأسرة، لا بدّ أن تكسبها بما لها من دهاء وبراعة في المناورة، لكي تصل إلى ما تريد أن تصل إليه، وتفعل ما تريد أن تفعله.

هيجل والثلاثية الجدلية للمرأة:

يبدو أنّ المثلث الجدلي قد رافق هيجل أيضاً في علاقته بالمرأة.[46] هكذا يتحدث إمام عبد الفتاح إمام عن هيجل ـ وهو المتخصص فيه من دون منازع في الفكر الفلسفي العربي- في علاقته بالمرأة.

والجدير بالذكر أنّ إمام عبد الفتاح يشير إلى أنّ هيجل عالج موضوع المرأة من زاوية ديالكتيكية صرفة؛ فهناك ثلاث نساء كان لهن حضور في حياة هيجل. وأذكر، على سبيل المثال، المرأة الأولى، وهي شقيقته (كريستينا Christina) التي كانت تصغره بثلاثة أعوام، ولدت عام 1773 وبقيت بدون زواج، وظلت تعمل مربية أطفال حتى مرضت عصبياً ثم انتحرت غرقاً بعد وفاة أخيها بأشهر قليلة، وعلى وجه التحديد في 2 فبراير 1832.

ومن الواضح أنّ هيجل كان يربطه بأخته رابط روحي وثيق، تكشف عنه غيرة الأخت من زوجة هيجل، وانهيارها عندما سمعت بزواجه، ثم شكواها المستمرة من زوجة أخيها، لكنّ الأهم من ذلك نظرة الفيلسوف نفسه إلى هذا الرابط الروحي الذي عبّر عنه بحسّه الفلسفي عندما تفلسف حول علاقة الأخ بالأخت في فلسفة الحق، على أنها علاقة من أسمى العلاقات في العائلة، والمثل الحي هو أنتيغونا بطلة رواية سوفكليس Sophocle الشهيرة.[*]

---

[45] المرجع نفسه، ص 110

[46] إمام عبد الفتاح إمام، أفكار ومواقف، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996، ص 711

[*] أنتيغونا ابنة الملك أوديب، رمز الوفاء الأسري والأخلاق في معارضة قوانين المدينة السياسية، عندما حرم خالها الملك كريون دفن شقيقها الذي كان يقاتل مع الأعداء، وأمر أن تترك جثته، باعتباره خائناً في العراء للسباع والطيور الجارحة، لكنها قامت بدفن الجثة، كانت مثلاً للإعلاء من شأن الواجب الأخلاقي، ولعلاقة الأخت بشقيقها، وبهذه الصفة يذكرها هيجل في معظم كتبه، ولاسيما ظاهريات الروح أو «فينومينولوجيا الروح».

يرى هيجل أنّ الأخ والأخت، وإن كان يجري في عروقهما دم واحد، فإنّ كل واحد منهما يمثل بالنسبة للأخر "فردية حرّة"، وتجمع بينهما ماهية أخلاقية هي بمثابة علاقة متبادلة بين وعي ذاتي حر ووعي ذاتي آخر، ولما كانت علاقة الأخ بالأخت علاقة روحية لا حسية، أو هي علاقة إنسانية رفيعة ينتفي معها كل الطباع الشهوانية، فليس من الغريب أن تكون هذه العلاقة هي قمة العلاقات العائلية، وبالخصوص أنها بعيدة كل البعد عن الطابع الحيواني أو الطبيعي، وهذا هو السبب فيما يقول هيجل من أنّ موت الأخ يمثل بالنسبة إلى أخته خسارة فادحة لا يمكن أن تعوض، وهذا ما عبّرت عنه أنتيغونا بقولها: "إذا مات الزوج، فإنّ رجلاً آخر سيحل محله، وإذا مات الابن، فإنّ رجلاً آخر يستطيع أن يعطيني ابناً ثانياً، لكني لم أعد أستطيع الآن أن آمل في مولد أخ جديد".[47]

ومن هنا كانت أنتيغونا تشعر أنّ واجبها نحو أخيها هو واجب أسمى، لا يمكن أن يعدله أيّ واجب آخر، وهذا هو السبب في أنّ أنتيغونا كانت باستمرار تجسّد أمام هيجل شقيقته كريستيانا.

أمّا المرأة الثانية في حياة هيجل، فهي عشيقته وأم ابنه غير الشرعي، ومن المفارقات الغريبة أنها كانت تحمل اسم شقيقته "كريستيانا" نفسه، ولكنّ علاقته بها كانت علاقة الضد المباشر للعلاقة السابقة مع شقيقته التي كانت علاقة روحية خالصة. أمّا هذه، فهي علاقة جنسية خالصة أيضاً. تعرّف عليها في مدينة "بنيا"، واسمها الكامل "كريستينا شارلوت يوحنا فيشر" كانت في الثامنة والعشرين من عمرها عندما التقى بها هيجل لأول مرة عام 1806، تصغره بثماني سنوات، وكانت زوجة مهجورة عملت عند هيجل مشرفة على منزله. ويبدو أنه كان قد عزم على عدم الزواج، ومن ثم عاشر هذه المرأة، وبعد عام وضعت له غلاماً هو "لودفيج"، الابن غير الشرعي لهيجل.[48]

ونستطيع القول، إنّ المثلث الجدلي تبدّى عند هيجل في المرأة من خلال الآتي: فقد كانت علاقته الأولى بالمرأة روحية خالصة مع شقيقته، في حين كانت علاقته الثانية جنسية خالصة مع عشيقته، وها نحن أولاء نصل إلى المركب في علاقته الثالثة مع ماريافون توتشر التي تنتهي بالزواج عام 1811. فالزواج كما يقول هو نفسه في "فلسفة الحق": "هو مركب من اللحظة الجنسية والحب"، حيث تتحول هذه الوحدة إلى وحدة روحية، أعني تتحول إلى حب واع لذاته.

[47] إمام عبد الفتاح إمام، أفكار ومواقف، مرجع سابق، ص 712

[48] المرجع نفسه، ص 713

وهكذا ينسدل الستار على العنصر العرضي في المركب الخاص بعلاقة هيجل الثلاثية بالمرأة: الروحية، والجسدية، والزوجية التي تجمع الاثنين معاً. وفيما عدا ذلك، فقد كانت حياة هيجل الزوجية هادئة منتظمة، يعتني بشؤون بيته بكل اهتمام وبكل تدقيق، ويسجّل جميع المصروفات ـ التي يتولاها بنفسه كما يفعل أهل الإقليم- في دفتر خاص ثم يجمع الحساب في آخر الشهر، ويقال إنه لم يكن يتوسع في الإنفاق، وإنما كان يجنح إلى الاعتدال.[49]

ويلخّص هيجل رأيه في المرأة في هذه العبارة: لا بدّ أن تلاحظ بصدد العلاقات الجنسية أنّ الفتاة عندما تسلم حبها للرجل تفقد شرفها. أمّا بالنسبة للرجل، فإنّ الأمر مختلف، لأنّ له مجالاً للنشاط الأخلاقي خارج الأسرة. فالفتاة مخصصة من حيث ماهيتها لرابط الزواج، ولهذا الهدف وحده، ومن هنا فالمطلوب منها أن يتخذ حبها كل الزواج، وأن تبلغ اللحظات المختلفة في الحب علاقتها العقلية الحقيقية بعضها مع بعض.

ويقول أيضاً: الفرق بين الرجال والنساء، هو كالفرق بين الحيوانات والنباتات؛ فالرجال يناظرون الحيوانات، والنساء يناظرن النباتات، لأنّ تطورهن أكثر هدوءاً، والمبدأ الذي يحكمه هو الوحدة الغامضة إلى حد ما للشعور أو الوعي، وعندما تتولى النساء زمام الحكم تصبح الدولة في الحال في خطر، لأنّ النساء لا ينظمن سلوكهن وفقاً لمتطلبات كُليّة، بل بواسطة الميول والآراء التعسفية.[50]

ويسأل إمام عبد الفتاح في نهاية عرضه لعلاقة هيجل بالمرأة: أكانت هذه الأحكام الصادرة عنه، والتي يمكن وصفها بالتعسفية تجاه المرأة، نتيجة لتجارب هيجل الخاصة؟ وبالطبع لا يمكن فصل الذات عن الموضوع في حياة الفلاسفة كما اتضح من قبل.

المرأة عند فيلسوف الاختلاف نيتشه:

يعتبر نيتشه من أبرز أعداء المرأة، بالنظر إلى أنّ خطابه الفلسفي رسم صورة قاتمة عنها، وكرّس بالتالي إقصاءها التاريخي، بل هناك من يعتبر أنّ نظرة نيتشه الدونية للمرأة، وتأييده للإقصاء الفلسفي المفروض

[49] المرجع نفسه، ص 715

[50] المرجع نفسه، ص 716

عليها، يشكل شهادة محزنة على قوة تأثير النظام الأبوي، حتى على فيلسوف مثله كان يملك كلّ المؤهلات لتقويض دعائم هذا النظام.[51]

ويرصد إمام عبد الفتاح إمام مجموعة من عبارات نيتشه المحزنة، ومنها: "أذاهب أنت إلى المرأة؟ إذن لا تنس سوطك"، "كلّ ما في المرأة لغز، وليس لهذا اللغز سوى مفتاح واحد هو: الحمل"، "روح المرأة سطحية، فهي صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح"، "ليس الرجل بالنسبة للمرأة إلا وسيلة. أما غايتها، فهي الطفل"، "لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة، فما هي إلا هرة، وقد تكون عصفوراً، وإذا ارتقت أصبحت بقرة"، "ليحذر الرجل المرأة عندما يستولي عليها الحب، وليحذر المرأة عندما يستولي على قلبها البغض"، "إذا كان قلب الرجل قاسياً، فقلب المرأة مكمن الشر".[52]

ويمكن القول، إنّ هذه الكلمات القاسية تلخص موقف الفيلسوف الألماني فردريش نيتشه F.Nietzsche (1844 - 1900) من المرأة، لكننا بذلك نقفز إلى النتيجة دون أن نعرض لمقدماتها، ويمكن أن يُعدّ ذلك تلخيصاً مسرفاً في التبسيط، بل ظلماً للفيلسوف، إن لم يكن للاثنين معاً: "نيتشه... والمرأة". ومن ثمّ، فإنّ علينا أن نعرض للظروف التي مرّ بها في علاقته بالمرأة ـ كمقدمات للنتيجة- حتى نستطيع أن نفهم موقفه منها فهماً جيداً ومنصفاً أيضاً، وأوّل ما ينبغي أن نذكره هو أنّ علاقات نيتشه النسائية كانت محدودة، ومن ثم كان صادقاً كلّ الصدق عندما قال على لسان نبيه زرادشت Zarathustra: "من الغريب أن ينطق زارا بالحق عن النساء، وهو لا يعرفهن إلا قليلاً... "، وإذا ما بدأنا من البداية وجدنا فريتس Frits اسم الدلع لفردريش الطفل، يعيش في بيئة نسائية خالصة بعد وفاة أبيه، وهو في الخامسة من عمره، وبعد أن كوّن عنه صورة خيالية رائعة، وكانت هذه البيئة تتألف من خمس نساء، هُنّ: أمه، وأخته، وجدته لأمه، وعمتاه العانستان، ولهذا قيل إنّ نشأته كانت في وسط ناعم، فجاءت تربيته رخوة ضائعة، وطفولته حالمة ذاهلة.

"ربما كان هذا هو السبب في عشق نيتشه للقوة فيما بعد، وظلّ يتغنى بها طوال حياته، ووصف "إرادة القوة" بأنها سرّ الوجود. لقد كره المسيحية لما فيها من دعوة إلى الرحمة بالضعفاء واعتبرها تناقضاً وتمويهاً وعبودية وتطلعاً إلى الغلبة من أحط السبل. ومن هنا قيل بحق: "لقد كان لنيتشه روح فتاة ترتدي درع جندي مقاتل"، فهذه الروح الحالمة الضعيفة كانت تشتهي القوة وتتمناها".[53]

---

[51] دافيد بوث: «نيتشه وبلاغته النسوية»، ترجمة حسن حلمي، مقال منشور بمجلة الحكمة، العدد الثالث، 1993، ص 65

[52] إمام عبد الفتاح إمام: أفكار ومواقف، مرجع سابق، ص705

[53] المرجع نفسه، ص706

وفي الواقع ليس من السهل الكشف عن حقيقة موقف نيتشه من المرأة أمام طابعيْ التشظي واللاتجانس **L'hétérogénéité** المميزين لمتنه الفلسفي.[54] فالمؤكد بالنسبة لدريدا هو أنه ليست هناك حقيقة في ذاتها، ولا حقيقة للمرأة في ذاتها بالنسبة لنيتشه، وصور المرأة المختلفة والمتناقضة التي تحضر على مستوى خطابه الفلسفي، تعكس هذه الحقيقة. وكما لاحظ دريدا[55]، فهذا ينسجم مع حقيقة نيشته ذاته ومع طبيعة فلسفته، حيث ليست هناك حقيقة لنيتشه أو لنص نيتشه. وحتى عندما يقول نيتشه "هذه حقائقي"، يقول ذلك في فقرة حول المرأة، ليؤكد على أنها ليست حقائق بالنظر إلى أنها متعددة ومتناقضة.[56]

لكن يمكن القول إنّ نقد نيتشه للعقل والثنائيات الميتافيزيقية وتأكيده بالمقابل للجسد، الاختلاف، الصيرورة والعود الأبدي، هو ذاته تأكيد للأشياء التي ارتبطت تاريخياً بالمرأة ومقتت من طرف اللاهوت والفلسفة القائمين على النظام الأبوي.

ومن المعروف أنّ نيتشه منذ شبابه كانت علاقته متوترة مع الديانة المسيحية، فكان يقول لأصدقائه: "الواقع أنّ المسيحية في حقيقتها تتعلق بالتعاليم الأساسية للمسيح، ولا يمكن التعبير عنها إلا بوصفها حقائق أساسية للقلب البشري"، حتى بلغ سن العشرين، وعاد من الجامعة، وعرفت شقيقته إلزابيت Elizabeth أنه ليس على ما يرام، فسألته فردّ عليها إنه سيتوقف عن دراسة اللاهوت.

كان هذا القرار بمثابة أوّل صدام مع نساء أسرته، وهكذا استمرّ الشقاق بين الفيلسوف وبين الضعف كما تمثله المرأة والدين معاً في نظره، وقد كتب خطاباً إلى شقيقته إثر مرض ألمّ به عام 1879، وكان يشعر أنه مشرف على الهلاك: "عديني إذا متّ ألا يقف على جثماني سوى الأصدقاء، وألا يدخل الفضوليون من الناس عليه، وألا يُدعى قسّيس ينطق بالأباطيل والأكاذيب على قبري، في الوقت الذي لا أستطيع فيه الدفاع عن نفسي، أريد أن أهبط إلى قبري وثنياً شريفاً".[57]

مشكلة المرأة عند نيتشه، هو أنه أحبها وتعلق بها أكثر من اللزوم، ومن ثم كرهها واحتقرها أكثر مما يجب، ظناً منه أنّ هذا الارتباط العميق هو ضرب من العبودية، تأباه روحه الحرة، وهو تعميد باللغة المسيحية لتجارب الفشل التي مرّ بها. تجربتان فاشلتان مرّ بهما نيتشه، التجربة الأولى مع (لوسا لومي Lusa Lomé) والثانية مع (كوزومي Koizumi).

---

[54] J Derrida «éperons: les styles de Nietzsche» éd Flammarion –paris 1978-p77

[55] ibid p83

[56] ibid p83

[57] إمام عبد الفتاح إمام: أفكار ومواقف، مرجع سابق، ص 707

ويزداد تمزق نفسية نيتشه بسبب المرأة وتكتمل تعاسته عندما ترفض سالومي نفسها الزواج به، ثم ترحل مع صديقه بول ري ليتزوجها بعد ذلك، على إثرها تفجرت طاقات الكراهية للنساء في نفسيته، فقد كتب لأحد أصدقائه قائلاً: "أنا لا أحب أمي، كما أنه أصبح من المؤلم لي أن أسمع صوت شقيقتي، إنني أشعر بالغثيان عندما أكون معهما".

إنّ كراهية نيتشه الشديدة للنساء، كما يفسرها إمام عبد الفتاح إمام، ترجع إلى حبه الشديد لهنّ، والذي دوماً ينتهي بالفشل الذريع، حبّ لا يتحقق، فانقلب إلى ضده، وأصبح يفضل العزلة ويغوص في أعماق ذاته، فلا شريك، ولا قرين، ولا حتى شبيه[58]. كتب إلى أخته يقول: آه! لو كنت أستطيع إعطاءك فكرة عن إحساسي بالوحدة، فلست أجد من بين الأحياء ولا من بين الأموات من أحس أنّ بيني وبينه شبهاً أو قرابة، وهذا مخيف، مخيف إلى أقصى حد.

وهنا يستفسر إمام عبد الفتاح عن هذا النزاع المرير الذي لحق بنفس الفيلسوف نيتشه من المرأة ويتساءل: أهو الحب الذي لم يتحقق؟ أم هي لعنة المرأة التي كانت تطارده، فتجعله ينزوي في وحدة قاسية يشعر فيها ببرودة قاسية، مع أنه تمنى أن ينعم بالدفء بجوارها؟ أم أنّ فقدان الأب في سن الطفولة الغض، جعله يكوّن عنه صورة خيالية يستحيل عليه أن يكون قد خبرها؟ أم أنه البصر "الضعيف" الذي جعله يكره الضعف في كل صورة؟ ربما كانت هذه الأسباب مجتمعة هي التي جعلته يشكل هذه الصورة القاتمة عن المرأة.

ولعلّ المفارقة التي تكشف عنها فلسفة نيتشه في نظر المهتمين بفلسفته، تتمثل في "عجزه عن إزاحة الرجل عن مكانته المتميزة بعد نجاحه في إزاحة أغلب الدعامات الفلسفية واللاهوتية واللغوية التي ظلّ الرجل محافظاً بواسطتها على ذلك الامتياز"[59]، هذا على الرغم من أنّ المشروع الفلسفي لنيتشه الذي يستهدف تقويض الميتافيزيقا، يتوخى في العمق تفكيك الأسس الفلسفية لمركزية اللوغوس logocentrisme. فالنقد الجنيالوجي الذي يوجهه نيتشه إلى "القيم المضادة" للحياة، نقد ضمني للميتافيزيقا واللاهوت الأبويين، أو على الأقل إنّ هذا النقد الجينيالوجي، يمكن أن يوظف بسهولة لتعرية الموضوعية المزعومة في الأحكام والادعاءات التي تؤسس سلطة الرجل، أو مركزية الذكر.

---

[58] المرجع نفسه، ص 710

[59] دافيد بوث، «نيتشه وبلاغته النسوية»، مرجع سابق، ص 54

من هنا يمكن القول مع دريدا، إنّ هناك "أطروحات ذات نزعة نسوية ظاهرة، في ثنايا مجموع الكنايات التي يعبّر من خلالها نيتشه عن عدائه للنزعة النسوية"،[60] لأنّ فلسفة نيتشه تلتقي ضمنياً مع انشغالات الحركة النسائية، وذلك من خلال تأكيده على التغير والاختلاف والصيرورة، في مقابل الهوية والتطابق.

خاتمة:

إنّ تجربة إمام عبد الفتاح إمام في سلسلته الشهيرة "الفيلسوف والمرأة" و"الفلسفة والمرأة" لجديرة بالدراسة والتحليل، وقبلها القراءة والتمعن. فمن خلال هذه السلسلة، تعرّفنا على حقائق غاية في الأهمية لا سبيل لنهضة المرأة العربية إلا بمعرفتها وفهمها فهماً جيداً، كما أنها ساعدت على زيادة معرفتنا بالغرب على حقيقته.

صحيح أنّ الغرب لا يكفّ عن تصديع رؤوسنا بتحرير المرأة، وصحيح أنّ هذا الغرب يستخدم هذه الدعوة النبيلة لأغراض انتهازية محضة، بل وعنصرية أحياناً، لكي يوفر لنفسه الفرصة لينظر إلينا من فوق بوصفنا كائنات دونية، إلا أنّ هذا الغرب نفسه ظلّ يستعبد المرأة قروناً طويلة، ويسومها سوء العذاب ويفرض عليها شتّى صنوف التمييز والقهر والعنف، وهو لم يحررها إلا منذ مدة لا تزيد على سبعة عقود من الزمن، ولا أجد غضاضة من ذكر أنّ الإسلام الذي كان بمثابة ثورة اجتماعية كبرى، فيما يتعلق بحقوق المرأة وسبل التعامل معها، كان قد فعل ذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. والخلل الحالي في مجتمعاتنا يعود بالأساس إلى ممارستنا الواقعية، فهناك فرق دائماً بين الدين في جوهره وتعاليمه وقيمه السامية وبين الممارسة أو التدين.

إنّ تاريخ الفلسفة الغربية الذي قام بكتابته مؤرخون وفلاسفة غربيون أيضاً، عمدوا إلى تشويه المرأة والحدّ من حريتها والنيل من كرامتها، مستندين في ذلك إلى أقوال ونظريات وتصرفات الكثير من فلاسفتهم الغربيين، أمثال جون لوك وروسو ونيتشه وغيرهم كثير. والذي ينظر في حياة هؤلاء الفلاسفة ـ مادة التاريخ- سيجد العجب العجاب في حيواتهم الخاصة التي أثرت على أفكارهم وكتاباتهم. ولا يعنى ذلك التقليل من قيمتهم، وإنما لا بُدّ من إعمال التفكيك إلى جانب المنهج التاريخي لفهم الظواهر التي درسوها وبنوا عليها أنساقهم الفلسفية الشامخة، ورسّخت لدينا نحن ـ العرب والمسلمين- أفكاراً أشبه بالمسلمات.

[60] المرجع نفسه، ص 63

وقد نقلنا لكم صورة واضحة ساهم في إنتاجها أستاذنا الرائع ومفكرنا الكبير إمام عبد الفتاح إمام، صورة فحواها الاحتقار والتشويه المتعمّد للمرأة. صحيح، أنّ الصورة تبدو مختلفة تماماً اليوم، لكن يجب ألا ننسى أبداً تاريخ الاضطهاد الغربي الطويل للمرأة على مرّ العصور.

ومن أجل ذلك، يجب إعادة كتابة تاريخ الفلسفة، بل بالأحرى تاريخ الوجود كله، وفق رؤية جديدة، تستلهم روح المساواة بين الرجل والمرأة، باعتبارهما يمثلان ويشكلان -أي الذكر والأنثى/العاشق والمعشوق كما في الرؤية العرفانية- قطبي هذا الوجود، ناهيك عن كونهم عيال الله وإرادته الخالصة.

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com